"الجار"

ميناء المدينة القديم

"البريكة حالياً"

بقلم : الأستاذ عبد الكريم محمود الخطيب

لميناء الجار شهرة قبل الاسلام : إلا أنها بعد الاسلام نالت شهرة كبيرة ، وأصبحت أشهر موانى الحجاز حيث يعرف البحر الاحمر ببحر الجار ، وأصبح جغرافيو القرن الثالث الهجرى يشيرون اليه كثيرا فى مواضع عدة . ويصف البشارى مدينة الجار فيقول : (الجار مدينة محصنة بثلاث حيطان والرابع البحر وبها دور شاهقة وسوق عامرة، وهى خزانة المدينة ويحمل اليها من بدر الماء ، والطعام من مصر) ويقول صاحب معجم البلدان :

(هى فرضة ترفأ اليها السفن من أرض الحبشة وعدن والصين وسائر بلاد الهند ، ولها منبر وهى أهلة وشرب أهلها من البحيرة وهى عين يليل وبالجار قصور كثيرة) ، ومن قوله : (أهل الجار يأتون بالماء من فرسخين وأكد ذلك أبو الاشعث الكندى عن عرام بن الاصبغ السلمى) وينسب الى الجار جماعة من المحدثين منهم : سعد الجارى وهو سعد بن نوفل مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، استعمله حاكما على الجار . كما ينسب اليها عبدالملك الجارى مولى مروان بن الحكم . وقد ضعف شأن ميناء الجار منذ القرن الرابع الهجرى : حيث اختل نظام الامن فى الحجاز بضعف الحكم فتسلطت الاعراب على الجار بالنهب والسلب . وفى أواخر القرن السادس الهجرى بدأ أمر الجار يضمحل وصار حجاج مصر والمغرب يركبون البحر من عيذاب الى جدة ..

وقد ظن كثير من المؤرخين أن موضع الجار هو الرايس ، والرايس هى فى منبسط من الارض على الساحل بالقرب من بدر وليس بها من الآثار مايشير الى عمران أو آثار ، أما البريكه هى الجار سلفا وبها خور عميق من البحر محاط بشاطئ صخرى ، وعلى مقربة من الخور تشهد فى أرضها آثار مدينة قديمة : منها موقع الافران ، وكسر الزجاج والفخار يكسو مساحة كبيرة من الارض ، وتشهد بقربها خرزات مجرى قناة لعين تنحدر من الجهة الشرقية من أسفل وادى الصفراء ، والبريكه تقع غرب بلدة بدر ، والمسافة بينهما تقارب خمسة وعشرين كيلو مترا ، وتقع البريكه بقرب الدرجة ٣٨/٣٠ طولا شرقيا و٣٣/٤٠ عرضا شماليا . وفى وقتنا الحاضر يستعمل هذا الميناء الصيادون من ينبع ، وترسو فيه السفن الشراعية القادمة الى ينبع من جدة ، وكان قد استعمله الجيش المصرى فى عام ١٢٢٦هـ حين هزم على يد الجيش السعودى فى قرية الخيف بوادى الصفراء : حيث ولوا مدبرين الى البريكه وركبوا منها السفن الى ينبع . وأشار الى ذلك المؤرخ الشيخ عثمان بن

عبدالله بن بشر صاحب : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، فقال : (البريكه هى المعروفة بالجار ميناء المدينة القديم ، والبريكه تقع غرب بلدة بدر وتبعد عنها مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا) .

وقد اهتم الخلفاء الراشدون بميناء الجار بعد أن تم للمسلمين فتح مصر ، وقد روى المؤرخون أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية كتب اليه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يحمل منها الطعام الى المدينة المنورة فى عشرين مركبا ، فى المركب ثلاثة آلاف أردب أو أكثر حتى وصل الجار ، فخرج الخليفة عمر رضى الله عنه وبرفقته كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قدم الجار (١) ثم وكل من قبض ذلك الطعام ، وبنى هناك موضعين وجعل ذلك الطعام فيها . ثم أمر زيد بن ثابت أن يكتب للناس صكاكا من القراطيس ثم يختم أسفلها ؛ فكان أول من صك وختم الصكاك . وقد ضعف شأن الجار منذ القرن الرابع الهجرى حين اضطرب الأمن فى الحجاز بضعف الحكم ، فتسلط الاعراب على الجار بالنهب والسلب وقتل أهله ، ومن يومها اضمحل الجار وتحرك ميناء ينبع البحر باضمحلاله ..

ويبعد الجار عن ينبع الميناء بمسافة خمسة وأربعين كيلو مترا تقريبا . وقد قام المؤرخ صاحب مجلة المنهل المرحوم الاستاذ عبدالقدوس الانصارى برحلة الى منطقة الجار وقد أصدر عددا خاصا عن رحلته تلك فى عام ١٣٩١هـ . ومن قوله عن الجار : (وذهبنا الى ساحل الخليج الرابض على أنقاض الجار الممتد من البحر الكبير حتى حافة المدينة الجنوبية ، وقد بحثنا بحثا سطحيا عن الرصيف الذى قيل لنا إنه كان هنا . وبعد بحث سطحى بدت لنا حقيقة وجود هذا الرصيف أيام عمران المدينة ماثلة للعيان وقد تآكل وتداعى ظاهره بفعل الأمواج الهادرة ، أو العارمة التى تلمس بأصابعها بشرته طيلة القرون الخوالى ليل نهار ـ ولقد ظهر لنا رصيف المدينة على شاطىء الخليج ، وهو مبنى بالحجارة المنقبية (٢) البيض المنحوتة بناء متماسكا قويا بدليل بقاء أسسه المزيده على شاطىء الخليج الى اليوم وكان يحمى المدينة من طرقات مياه الخليج التى ربما اشتدت أيام امتداد البحر وطغيان أمواجه ..

أما عن أطلال مدينة الجار فيقول: (وعدنا أدراجنا صوب الأطلال الهامدة تحت التراب فبحثنا أولا عن القصور الكبيرة التى كان الجار يموج بها . وقد رأينا أكواما مرتفعة متقاربة

ومتباعدة فى داخل سورها القديم المتداعى ؛ فرأينا أن هذه ربما تكون أطلال القصور النائمة . وحينما رفعنا شيئا من التراب تبدت لنا حجارة منقبية : هى إما أسس القصور ، أو مايعلو الاسس مباشرة من البناء . ثم رأينا أن نبحث عن السور المذكور فى التاريخ : انه يحيط بالمدينة من ثلاث جهات وسرعان ماتجلى لنا السور متمثلا فى هذه الآكام المرتفعة متسلسلة من البحر فى الجنوب الغربى الى الشمال والى الشمال الغربى،ومن الشمال الغربى الى الشمال الشرقى،ومن الشمال الشرقى الى الجنوب الشرقى ..

ولم يأخذ منا التأمل كبير جهد ووقت حتى لاحظنا امتداد السور فى ثلاث جهات بدليل هذه التلال المحيطة بالمدينة فى شكل مستطيل من نواحيه الثلاث تماما كما فصله المؤرخون ..

(ولكننا رأينا بعد ذلك تلالا كثيرة متفرقة متباعدة ومتقاربة على غير نظام ، وبعد تأمل عميق رأينا أنهارا : ربما تكون القصور التى أنشأها الرافهون فى شمال المدينة الكبيرة خارج سورها ليكون لهم منها أطايب المنازل وأطايب الهواء النقى على عادة المدن الكبيرة فى امتدادها الاكثر صوب الشمال . وفى أثناء مرورنا بداخل المدينة المندثرة استرعى أنظارنا أرض مطمئنة فى شبه دائرة كبيرة غير منظمة تقع جنوب المدينة بقرب الرصيف الجنوبى منها ، وهى أرض هشة تسوخ فيها الاقدام ويعلو ظهرها شىء يشبه الدهن فى لونه الاصفر الداكن ، وقد قلبنا وجوه الرأى فى هذه البقعة فيما يعلوها من شىء من الدهن : فقلنا باحتمالات : أحدها أن تكون مقبرة المدينة اختاروا لها هذا الموقع المتطرف من المدينة القريب من رصيفها وخليجها . وثانى الاحتمالات أن تكون مجزرة المدينة رأوا أن يقتربوا بها من الساحل ومن موقع البحيرة ليسهل عليهم غسل الذبائح بعد ذبحها ، وتراكم الدهن وعظام الأنعام المذبوحة فيها فشكلت هذه الطبقة الدهنية على سطحها ، وثالث الاحتمالات أن تكون مسلخة السمك الذى يصيده حواتو (٣) الجار من بحرهم) .

ومن قول الأستاذ الانصارى عن رحلته الى الجار : (كلما كان من التلال وراء السور الشمالى والشرقى الشمالى فهو مكان الأبنية الجديدة التى تكون محلة أو محلات الضاحية الشمالية المغمورة بالعمران أكثر من سائر الضواحى الأخرى ، ولابد أن فيها منازل ودكاكين وغيرها : فهى امتداد طبيعى للمدينة القديمة فى ناحيتها الشمالية عندما تكاثف السكان بها وبرموا من ضيقها ومن تلوث هوائها).

من كل ما اطلعنا عليه تاريخيا حول مدينة الجار القريبة من مدينة ينبع البحر الميناء ومن مشاهدات الاستاذ الانصارى فى ربوعها والوقوف على أكثر معالمها البائدة: يعلم أنها كانت مدينة من أمهات مدن الحجاز تعج بالحياة والحركة الدائبة ، وأنها كانت سوقا من أسواق الجزيرة التجاريه، وتجارتها لاتنحصر فى الجزيرة العربية فحسب : بل معَ الغرب والشرق : فكان الغرب يحمل اليها تجارته فيصرفها على الشرق ، وكان الشرق يحمل اليها تجارته فيصرفها الى الغرب : حتى أن مساحة المدينة ضاقت بسكانها فأخذ العمران ينتشر خارج أسوارها . وأنها كانت ميناء مدينة الرسول فى صدر الاسلام ويعلل أكثر من مؤرخ أنه ضعف شأن مدينة الجار فى القرن الرابع الهجرى حين اضطرب الامن فى الحجاز وضعف الحكم فتسلط الأفاقون من الاعراب وغيرهم من قطاع الطرق فى البر والبحر على المدن الحجازية ، ومنها تسلطهم على سلب الجار وقتل أهله : ومن هنا كانت مدينة ينبع البحر بديلا عن الجار فى المنطقة ، فبدأت تنمو من قلعة وخان أسست على أرضها فى القرن السادس حتى أصبحت مدينة من أمهات مدن الحجاز بالمملكة العربية السعودية .

○ جزيرة قراف والعباس ○

لاغضاضَة أن يعود المرء الى الصواب ، وأن يصحح أخطاءه : إذ الحق هو الضالة المنشودة ـ كنت أعتقد جازما فى الماضى أن جزيرة العباس الموجودة اليوم فى جنوب شرق ينبع الميناء وبالقرب منه ربما هى جزيرة قراف : حيث أشار صاحب معجم البلدان فى مادة الجار بقوله (وبحذاء الجار جزيرة فى البحر تكون ميلا فى ميل لايعبر اليها الا بالسفن وهى مرسى الحبشة يقال لها قراف ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار) .

واذا أردنا أن نعتبر جزيرة العباس على حذاء الجار فلا نكره فى ذلك التحديد باعتبارها قريبة منه . وقد أشرت الى ذلك فى بحث الينبعين فى الطبعة الاولى من مؤلفى « شعراء ينبع وجهينه » ولكن ظهرت لنا حقائق جديدة عن جزيرة قراف حين قام الأستاذان : حمد الجاسر وعبدالقدوس الانصارى برحلات متفاوته الى منطقة الجار فكانت رحلة الاستاذ الجاسر عام ١٣٩٠هـ . ومن قوله عن جزيرة قراف التى هى على حذاء الجار أى البريكه حاليا ٠

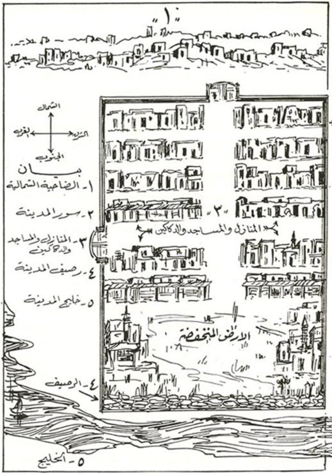
"١"
الشمال
الغرب
الشرق
الجنوب
بيان
١- الضاحية الشمالية
٢- سور المدينة
٣- المنازل والمساجد والدكاكين
٤- رصيف المدينة
٥- خليج المدينة
٢
"٣"
المنازل والمساجد والدكاكين
الأرض المنخفضة
٤- الرصيف
٥- الخليج

رسم تقريبي لمدينة الجار (البُرَيكة) وخليجها

(ان البريكة تقع غرب بلدة بدر والمسافة بينهما تقارب ٢٥ كيلو ، وتقع البريكة بقرب الدرجة ٣٨/٣٠ طولا شرقيا ، ٢٣/٤٠ عرضا شماليا ولم ترسم فى الخريطة وأمامها غربا فيما بينها وبين الرايس آثار جزيرة كبيرة لم يبق منها سوى الشعب المرجانية الصخرية وهى مستطيلة من الشمال الى الجنوب بارزة فى الخريطة) ..

ومن قول الأستاذ/ عبدالقدوس الأنصارى فى رحلته لمنطقة الجار عام ١٣٩١هـ وقد أصدر عددا خاصا عن رحلته تلك (وفى المرسى الكبير قديما المقفر حاليا سألت بعض من وجدتهم فيه : أين جزيرة قراف ؟ فلم يعرفوا هذا الاسم القديم الذى اندثر كما اندثر مسماه فى القديم ، قال المسئول مامعناه : الذى نعلمه أنه توجد جزيرة كبيرة فيها صخور عظام تعرف الآن باسم (السِلِّجِيَّة) بكسر السين المهملة واللام مع تشديدها وبالجيم المكسورة المشددة فياء مفتوحة مشددة ، وقال لى المسئول ايضا : لعل السلجيه هذه هى ماذكرت أنها جزيرة قراف).

ندرك من الرحلتين التى قام بهما الاستاذان البحاثه : حمد الجاسر والمؤرخ الاستاذ عبدالقدوس الانصارى أن جزيرة قراف لازال لها بقايا من آثار على حذاء البريكة أى الجار .. كما ندرك من قول الاستاذ الجاسر أن هناك آثار جزيرة كبيرة لم يبق منها سوى الشعوب، وعلى مايبدو أن عوامل المد البحرى أحدثت فيها تعرية فأزالت جزءا كبيرا منها . أما جزيرة العباس الموجودة اليوم على حذاء ينبع الميناء بمتابعة البحث والتنقيب لم نقف لها على اسم أصلى .. كل ماوقفنا عليه فى ديوان الشاعر الينبعى/ حسن عبدالرحيم القفطى الذى عاش فى القرن الرابع عشر فى الصفحة ١٥١ من ديوانه بيتين من الشعر قالها بمناسبة تشييد ضريح السيد العباس المدفون فى الجزيرة المسماه باسمه مرفوعة لقائمقام ينبع صادق أغا ـ اذ يقول :

أيد الله صادقا وحباه   مقعد الصدق يوم حسن المآب
قد أشاد الضريح هذا رجاء   فى جزيل الثواب يوم الحساب

لسنا ندرك من هو السيد العباس الذى دفن فى تلك الجزيرة وشيد له ضريح ، وقد أزيل الضريح كما أزيل غيره من أضرحة فى ينبع . غفر الله لشاعرنا القفطى وأهل

زمانه على هذه البدع التى لاتتفق مع الدين وتعاليم الاسلام ، ومع بداية العهد السعودى أنشئ فى هذه الجزيرة محجر صحى يشتمل على غرفتين، احداهما فيها مباخر للحجاج القادمين الى ينبع ، والأخرى بها جهاز المبخرة ، وكثيرا مايذهب أهالى ينبع بقصد النزهة الى تلك الجزيرة ولاسيا فى أيام الاعياد .. أما اليوم فقد دخلت الجزيرة فى مرافق ميناء ينبع الحديث ..

○○○○

○ علماء من الجار ○

وفى صدر الاسلام عرف من أهل الجار رواة الحديث مما يدل على ازدهار الجار علميا وكثرة سكانها ـ منهم :

١ ـ سعد بن نوفل الجارى مولى عمر بن الخطاب وعامله على الجار

٢ ـ سليمان بن محمد بن سليمان بن موسى بن عبدالله بن يسار الاسلمى ممن روى عن الامام مالك بن أنس وغيره ..

٣ ـ عبدالرحمن بن حسن الجارى

٤ ـ عبدالرحمن بن سعد الجارى

٥ ـ عبدالله بن سعد بن نوفل الجارى

٦ ـ عبدالملك بن الحسن الاحول مولى مروان بن الحكم

٧ ـ عمر بن راشد الجارى الساحلى القرشى

٨ ـ عمر بن سعد بن نوفل الجارى

٩ ـ عيسى بن عبدالرحمن الجارى

١٠ ـ يحيى بن احمد المدينى الجارى من موالى بنى الذيل من الفرس من اهل المدينة كان من تجار اهل الجار ..

١١ ـ يحيى بن محمد بن عبدالله بن مهران المدنى مولى بنى نوفل .

○ الهوامش ○

(١) كان ذلك فى عام الرماده الذى أكل الأخضر واليابس، واستمر فيه قحط وشحت الامطار فى العام الثامن عشر للهجرة .

(٢) الحجارة المنقبية : هى أحجار المرجان التي تستخرج من قلب الارض قطعا بالفئوس .

(٣) حواتو الجار : هم الصيادون الذين يقومون بصيد الاسماك فى المنطقة .